المنشآت الهندسية العامة

لحضرة صاحب السعادة محمد كامل نبيه باشا

وكيل وزارة الأشغال العمومية

لم يكد يتبوأ الخديو إسماعيل عرش مصر فى ١٨ من يناير سنة ١٨٦٣ بعد وفاة عمه المغفور له محمد باشا سعيد حتى ترسم خطى جده العظيم ساكن الجنان محمد على باشا الكبير فى التوفر على خدمة الوطن العزيز بكل ما ملك من وقت وجهد ، والعمل على ما يعود عليه بالرفاهية والتقدم ، وعلى ثروته بالنمو والازياد .

ولقد كان للأعمال الهندسية حظ وافر من عنايته فتم فى عصره الميمون من الأعمال الفذة والمنشآت الضخمة — ما عاد على البلاد بأطيب الخيرات ومبارك الثمرات ولقد جعل سموه أول همه إنشاء مصلحة للرى ، حيث تم ذلك بعد عام واحد من تربعه على العرش فأصدر أمره الكريم إلى نظارة المالية بحثها على ترتيب إدارة هذه المصلحة مع إدماج مصلحة المساحة فيها . وكانت مصلحة الرى عند إنشائها تتألف من ثلاثمائة موظف ، وكانت ملحقة بنظارة الجهادية بادىء الأمر ، لما رؤى فى ذلك من ضمان لسير الأمور بها وتنظيم الخرائط وسائر الأعمال الهندسية ، وظلت كذلك إلى أن كثر العمل وتشعب فى هذه النظارة خصوصاً بعد أن امتد سلطانها حتى خط الاستواء جنوباً ففصلت مصلحة الرى عنها وألحقت بنظارة الداخلية واستثنى من ذلك إدارة القناطر الخيرية ، لأن الفكرة فى ذلك الوقت كانت سائدة باستعمالها كخط دفاعى لمصر لأن بها من الاستحكامات الحربية ما يبرر ذلك .

ولما كان سموه محباً للزراعة مشجعاً للإصلاح معنياً بتحسين حال الفلاح

ولما رأى البلاد مفتقرة إلى المهندسين فقد صدرت إرادة سموه بافتتاح مدرسة لهم ، وقد كان (خالد الذكر) شديد العطف على طلبتها فشملهم بعنايته وتشجيعه وأجزل لهم المكافأة والعطاء .

ولقد رأى سموه بثاقب نظره وراجح فكره أن ينشر العمران على ضفاف ترعة الاسماعيلية ، فأمر بأن تعطى التراخيص للأهالى بامتلاك الأراضى على ضفافها وكلف المالكين بوجوب إشغال ربع المساحة بالمبانى ، كما أقر سموه مشروعاً قدمه إليه رجال الرى فى ذلك الوقت باستكمال ترعة الإسماعيلية التى تأخذ من النهر عند قصر النيل بالقرب من المتحف المصرى مع تغذيتها من ترعة الباشا التى كانت تأخذ من النيل قبلى شبرا ولقد استدعى هذا المشروع (عدا أعمال الأتربة) إقامة خمس قناطر جديدة منها قنطرة الأميرية التى حل مكانها الآن (بطمبات) الأميرية المخصصة لرى مساحة قدرها ٥٠٠٠ فدان .

ولما كانت القناطر الخيرية التى شيدها جده العظيم هى عماد الزراعة الصيفية بالوجه البحرى وأساس الثروة القومية فقد وجه سموه أقصى عنايته بها فكان أول من استخدمها وأول من استعان بالخبراء العالميين لوضع مشروع تقويتها ولقد تمت تقويتها فيما بعد على الاساس الذى تقدم به لسموه المهندسان الكبيران السير جون فولر والجنرال رندال المفتش العام السابق بحكومة الهند ، وقد تم فى عهد سموه إنشاء فم رياح البحيرة وإصلاح (طمبات) العطف .

ثم شرع سموه فى شق الترع بالوجه البحرى وتعديلها تحسيناً لحالة الرى به فتم فى عهده حفر رياح البحيرة وتعديل ترعة المنصورية والرياح المنوفى ، وما يزيد على مائة ترعة نيلية بلغ طولها أكثر من ثمانية آلاف من الأميال تمكن الناس بفضلها من إصلاح ما يقيف على مليون فدان بلغ دخلها عدة ملايين من الجنيهات .

ويبدو أن سموه كان حريصاً على الإستفادة من الحرب الأهلية الأمريكية التى عاصرت مستهل عهده وما ترتب عليها من ارتفاع أسعار القطن فأمر

بتطهير الترع وتعميقها توفيراً للمياه اللازمة للمزروعات الصيفية مدة التحاريق فزاد محصول القطن فى أول عهده من نصف مليون إلى مليون وسبعمائة ألف قنطار بيعت بمبلغ خمسة عشر مليون جنيه وتدرج المحصول فى الزيادة حتى بلغ فى أواخر عهده ثلاثه ملايين قنطار تقريباً .

ولما انتهى تأثير الحرب الأمريكية اتجهت عناية سموه إلى محصول القصب فحظى إقليم الوجه القبلى بالكثير من مشروعات الإصلاح . فكان سموه أول من أدخل نظام الرى الصيفى فى هذا الإقليم وكان يزرع القصب فى مساحات واسعة منه فى أراضى الدائرة السنية .

ومن أهم الترع التى أنشئت بالوجه القبلى فى عهد سموه الحافل بجلائل الأعمال ترعة الإبراهيمة التى عم نفعها والتى تعد من أكبر الترع فى العالم ، فلقد أصدر سموه الأمر إلى ناظر الأشغال بشقها عام ١٨٧٠ من أسيوط إلى المنية مع إنشاء ما يلزم من القناطر المختلفة عليها . ويبدأ مأخذ هذه الترعة من النيل قرب أسيوط ، وبعد أن تسير مسافة ٦١ كيلو متراً إلى الشمال يتفرع منها عند قناطر ديروط ثلاثة فروع هى : البحر اليوسفى والديروطية والساحلية ثم تسير شمالا بمحاذاة مجرى النيل لمسافة ٢٨٦ كيلو متراً فتروى الجزء الشمالى من أراضى مديرية أسيوط وأراضى مديريتى المنية وبنى سويف ، كما أنها تغذى مديرية الفيوم بوساطة البحر اليوسفى الذى يتجه ناحية الغرب ويسير مسافة ٢٧٦ كيلو متراً قبل أن يدخل مدينة الفيوم .

ويبلغ مجموع مساحات الأراضى التى تروى منها ما يربو على مليون من الأفدنة منها ٧٠٠ ألف فدان تروى ريا صيفيا .

وقد أنشأ سموه تسعة عشر مصنعاً للسكر بمديريات الوجه القبلى كانت تمد البلاد بحوالى مليون قنطار سنويا .

ولما كانت المحاصيل الزراعية تتطلب سرعة النقل وسهولة المواصلات فقد

أمر سموه أن تكون المجارى الرئيسية ملاحية ، فأنشئت الأهوسة بالقناطر وأقيمت (الكبارى) على النيل والترع ، وأهمها (كوبرى) قصر النيل (وكوبرى) السكة الحديدية عند كفر الزيات .

وامر سموه بتوسيع ميناء الإسكندرية وإنشاء المنائر فيها وإصلاح ميناء السويس كما تم فى عهده تكوين (شركة البوستة الخديوية للملاحة) .

ولقد اقترن عهد سموه بفيضانات عالية هددت الجسور وأحدثت بها القطوع كفيضان عام ١٨٧٤ الذى دام وقتاً طويلا ، وفيضان عام ١٨٧٨ الذى بلغت ذروته منسوباً عالياً ، فكانت عين سموه ساهرة إلى جانب المشرفين على شئون الرى إذ كانت مناسيب النهر ترصد يوميا وترسل لسموه تلغرافيا . وكان سموه يصدر أمره الكريم إلى ناظر الأشغال بالمرور بنفسه على القناطر الخيرية والكشف عنها وتتبع المناسيب واتخاذ الحيطة والإجراءات اللازمة لتقوية الجسور وصيانة الأماكن المهددة بالأخطار ، كما أصدر أمره عام ١٨٦٩ بوضع أول مقياس للنيل عند أسوان أمكن بفضله رصد المناسيب التى نعول عليها الآن فى دراساتنا الحديثة لدرء غوائل الفيضان وحساب التنبؤات وتقدير الاحتياجات .

كما اقترن عهد سموه بفيضانات منحطة هددت ثروة البلاد فقد تخلف عام ١٨٧٧ حوالى مليون وثمانمائة ألف فدان من الأراضى الزراعية لم يتمكن أصحابها من ريها فأصدر سموه الأوامر السنية برفع الضرائب الأميرية عن هذه الأراضى كما أمر بمنح التقاوى من شئون الحكومة لمن أمكنهم رى أراضيهم وتوزيع مقدار من القمح والذرة على المحتاجين الذين عجزوا عن تحصيل أقواتهم .

وكانت الطريقة المتبعة فى ذلك العهد للبت فى شؤون الرى المختلفة هى إصدار الأمر بعقد جمعية عمومية من مفتشى الرى بالأقاليم ومن المديرين وباشمهندسى المديريات مع الاستئناس بآراء العمد فى المشروعات التى تقع فى بلادهم قبل البت فيها .

ولقد صدرت فى عهد سموه أول لائحة لتنظيم أعمال الرى تنص على طريقة

تجهيز المقاييسات وإعداد الرسوم وكيفية تحصيل ما تتطلبه هذه الأعمال من نفقات وقد توخت اللائحة فى هذا الجانب العدالة والإنصاف حيث نصت على أن تتحمل كل مديرية أو قرية أو عزبة نفقات الأعمال التى تقتصر فائدتها عليها . ويدخل فى ذلك الإجراءات الخاصة بالمحافظة على جسور النيل من غوائل الفيضان ، وكذا إنشاء الترع وتطهيرها وما يقام عليها من مبان وأعمال صناعية .

كما نصت اللائحة على طريقة حفظ المهمات وحراستها بإنشاء مخازن خاصة فى المراكز والبلاد القريبة من مواقع الأعمال لكى تكون فى متناول اليد وتضمنت اللائحة على ضرورة جرد هذه المخازن سنوياً وسد النقص فى المهمات لكى تكون محتوياتها كافية لتلبية الطلبات عند الطوارئ .

وبقدر ما كان سموه محباً للزراعة كان شغوفاً بتجميل المدن وإصلاح المرافق العامة فى البلاد فقد أمر سموه بتنظيم مدينة القاهرة وتعديل مجرى النيل أمامها وتنظيم مدينة الأسكندرية وإدخال ماء الشرب والنور بالمدينتين وردم بركة الأزبكية .

وكسا العاصمتين حلة جميلة بما أنشئ فيهما من أحياء وميادين ، كميدان عابدين والعتبة الخضراء والإسماعيلية التى أحيطت بالعمارات الفخمة والقصور الشاهقة ، كما أدخل سموه فى مصر أكبر مجموعة من الأشجار .

ولم يقتصر نشاط سموه على النهوض بالمرافق داخل البلاد ، بل تعداه إلى خارجها بدافع من حب البحث والعلم فأرسل سموه البعوث وجرد الحملات وزودها بسلطات مطلقة لاستجلاء ما غمض من أسرار منابع النيل . ولقد تمكنت هذه البعثات من كشف بعض البحيرات الاستوائية ، كما أتمت مسح مديرية دارفور مسحاً عملياً أدى إلى كشف بلاد كردفان ودرس البلاد الواقعة بين النيل والبحر الأحمر درساً جيولوجياً .

وجملة القول أن النهضة التى ازدان بها عهد إسماعيل كانت نهضة هندسية علمية سيظل أثرها الخالد مقروناً بإسم ذلك العاهل العظيم .